أرنو غايغر

الســـــــر
المفـــرح

دار نشر هانزر

"دائما ما كان لي حياة سرية

وكانت هذه دوما حياتي الحقيقية"

الأديب المجري الشهير إيمري كيرتيس الحاصل على جائزة نوبل بالأدب

هناك أسرار مظلمة، وأسرار مفرحة. وقد كان سري المفرح، على مدى خمسة وعشرين عامًا، يتمثل في أنني كنت أذهب في حملات مطولة عبر فيينا، أتفقد صناديق القمامة المخصصة للورق في شوارعها، بحثًا عن شيء يثير اهتمامي. أدرك أن هذا ليس حدثًا يوميًا بأي حال من الأحوال، على الرغم من أنه يتعلق بشيء يومي، بل بأحد الأشياء القليلة التي هي في متناول الجميع: القمامة. ومع ذلك، لا بد أن يكون الشخص مجنونًا بعض الشيء ليقضي طواعيةً كل هذه السنوات الطويلة مع ذلك الشيء اليومي. بالطبع إنني لا أعتبر نفسي مجنوناً. لكن الجزء الخالي من الجنون في عقلي يقول، إن مقدارًا من الجنون متوفّر بالتأكيد. جنون مفرح، حسبما يرُدُّ الجزء المجنون بداخلي.

خمسة وعشرون عاماً. إن مجتمعنا عبارة عن مصنع للتخلص من القمامة، يعمل بكامل طاقته، وينتج تيارًا غير قابل للانقطاع من القمامة. من هذا التيار الذي يتدفق أمامنا يوميًا، قويًا كنهر ميكونغ، كنت أسحب قطعةً، من وقت لآخر. كان ما كنت أفعله يشبه التقاط الماء بمصفاة. وبالنظر إلى الكتلة الهائلة من القمامة المهملة، كان القليل الذي حملته إلى المنزل يشبه الماء الذي يعلق في ثقوب المصفاة، بفضل بعض التوترات السطحية.

أما حاليًا، فقد تخليت عن هذا العمل. لكن ربع قرن في الشارع، من الانشغال بما يتخلص منه الآخرون، يضيف إلى الإنسان أشياء لا يمكن إزالتها ببساطة. على مدار ربع قرن، كانت المهملات جزءًا من حياتي. ولا يمكن للشخصية أن تبقى مستقلة عما تفعله، إلا لفترة قصيرة. عندما يقضي شخصٌ عقودًا من الزمن، أسبوعًا بعد أسبوع، كلما سمحت الظروف، في القيام بعمل، طالما عُدّ حكرًا على المنبوذين، فإن هذا العمل يؤثر على شخصيته. لقد شكلتني جولاتي كإنسان، بقدر ما شكلتني ككاتب. وهذا أفضل ما يمكنني قوله عن الأمر.

القمامة موضوع عنيف، ليس فقط كمورد للمواد الخام، ولكن أيضًا كمورد ثقافي، كجزء فرعي من الذاكرة الثقافية، كانعكاس لثقافة ما. فالقمامة لديها القوة لتزوِّد أحياءً بأكملها بالطاقة. ولكن يمكنها أيضًا تحفيز العمليات الإبداعية. ففي القمامة يوضع ما تم إنجازه، ومن خلال تلك الأشياء المنجزة، يوفر المجتمع معلومات عن نفسه. بالنسبة لعلماء الآثار، تعتبر خنادق المدينة القديمة، التي كان يتم ملؤها بالقمامة، بمثابة عروق الذهب. يعلم علماء الآثار: إن ما تم إنجازه يجسّد حقبة من الزمن، تمامًا كما تفعل أهم الأعمال الفنية. في القمامة تسكن الحقيقة. والحقيقة يجب أن تظهر يومًا ما: تتكون الحياة من الفوضى، والحيرة ، والوسخ، والموت. العالم الأكثر جمالاً والأكثر كمالاً يشبه كومة روث مقلوبة ومقفرة.

هكذا أنا، شخص كرّس نفسه العالم الأكثر جمالاً والأكثر كمالاً. هذا ما تدور حوله هذه القصة. وأنا أعلم أن مثل هذا النص، مهما كان مكتوبًا جيّدًا، فهو يبدو أفضل مما ينبغي. من حيث الأسلوب الذي يصور ما مررت به، ومن حيث التصوير الذاتي لما كان في السابق، وما هو كائن الآن من خلال الكلمات، تنتمي قصتي إلى جنس الأدب.

يدخل رجل الشارع بنايةً، ثم يدخل شقة، ويجلس إلى مكتب ويدون بعض الملاحظات. من خلال تدويني لبعض الملاحظات حول ما حدث لي في حياتي، يتحول رجل الشارع إلى أديب.

لم يتبق الكثير، كي تكون ثلاثة عقود قد مضت، منذ أن بدأ الأمر. كنت في الرابعة والعشرين من عمري، ولم أكن أبحث عن وظيفة، لأنني كنت أريد أن أصير كاتبًا، وكنت أعيش في فيينا في بناية كان منظرها يوحي بأنها على وشك الانهيار.

في هذه البناية المتهالكة، كنت أعيش في شقة متهالكة، مساحتها ثلاثون مترًا مربعًا، تتكون من مطبخ ضيق وغرفة متصلة به. كان على هذه الغرفة أن تؤدي وظائف غرفة المعيشة، والمكتب، وغرفة الطعام، وغرفة النوم. أما الحمّام الذي كان في الممر، فكنت أتشاركه مع الجيران.

مقابل هذا المحتوى الزهيد للشقة، كان والداي قد دفعا قبل عامين مبلغًا كبيرًا من المال، كخلو رجل غير قانوني، وهي ممارسة كانت شائعة في ذلك الوقت في فيينا، التي كانت تعاني من أزمة إسكان. وكان من المقرر أن يُرَدَّ هذا الاستثمار في صورة الإيجار المنخفض على نحو استثنائي، إلى جانب رغبتي أنا في التوفير. كانت الشقة تقع في موقع مركزي، غير بعيد عن دار الأوبرا. هنا كان لدي مكان، يغمره ضوء الشمس أحيانًا، وأحيانًا أخرى الحب. وكانت الميزة الأخرى بالنسبة لي هي القرب من سوق ناشماركت، حيث المواد الغذائية الرخيصة، وسوق السلع المستعملة أيام السبت. هناك، كنت أحصل على كل ما أحتاجه من كتب وأقلام، بالإضافة إلى السلع المنزلية والملابس.

بدت الشقة كئيبة من الخارج، مع الخزانات التي يبلغ ارتفاعها مترين ونصف المتر التي أزالها والداي، وغطاء السرير القديم. لكنني كنت أعتبرها منزلي، كما اعتبرت نفسي محظوظًا لامتلاكي هذا المكان، وبابٍ يمكنني إغلاقه خلفي. كثيرًا ما كنت أدرس للامتحانات، وكثيرًا ما كنت أكتب رواية. كانت لي صديقة اسمها م.، كانت تبذل جهدًا لقراءة ما كنت أكتبه، لكنها عادة ما كانت تغفو أثناء ذلك. كنت أدرك ذلك عندما أكون جالسًا على مكتبي، فلا أعود أسمع المزيد من التصفح خلف ظهري. كانت م. تنام بهدوء شديد. أما عندما كنت أنا أحتاج لما أقرأه، فقد كنت أذهب إلى سوق السلع المستعملة. أعود، ليس بكتاب واحد، بل بعشرة كتب. بدا لي المستقبل شاسعًا جدًا، لدرجة أنني كنت أشتري مخزونًا كبيرًا بلا تردد. كنت عنيداً بما يكفي لأفضِّلَ غير المألوف على المألوف.

بالنظر إلى الوراء، مع مرور طوفان الأيام، لابد أن أقول:

لقد كنا أنا وم. من أبناء الأقاليم، قلقَين ومجتهدَين. كنا نحب العناق والتسكع معًا، لكننا لم نثابر على ذلك لفترات طويلة. كنا نمارس حتى الاحتضان والتسكع بتركيز، وليس كغيرنا بالمثابرة. كنا في حركة دائمة، فضوليَين، عازمَين على المضي قدمًا.

عند هيئة الأسواق على جسر كيتّن بْروكِه، الذي كنت أمر به كل يوم تقريبًا في طريقي إلى التسوّق، كانت هناك محطة كبيرة لتجميع القمامة، بها العديد من حاويات الورق. وفي أحد الأيام صادفت ذات يوم خمسة صناديق موز، مليئة بالكتب، متروكة هناك باعتبارها قمامة. صدفة. أم أن الأمر يبدو فقط كذلك؟ ربما ليست الصدفة وحدها هي الكلمة الصحيحة، لأنني كنت شغوفًا جدًا بالمدينة الكبيرة، حتى أنني كنت دائمًا مفتوح العينَين. عاجلاً أم آجلاً، كان لا بد أن يحدث ذلك.

عند محطة مترو الأنفاق لوّحت لسيارة تاكسي، واستقللتها إلى شقتي، ومعي الصناديق. في المنزل، رفعت أغطية الصناديق وقلبي يخفق بشدة. ما زال ذلك الصوت المميّز لاحتكاك ورق الكرتون المقوى في أذني. أتذكر فيليكس دان، و"معركة حول روما"، ويوهانا شبيري، وهايدي، وكتالوج ملصقات لمعارض جوزيف بويس، لا يزال يميل على رف مكتبتي حتى اليوم. "أظهِر جرحَك!".

في ذلك اليوم، نشأ لدي ذلك الحس تجاه كل ما يُحتمل أن تحتوي عليه محطات تجميع القمامة العامة. و منذ ذلك الحين، كلما كنت أمر بجانب محطة القمامة تلك، كنت أختلس النظر داخل حاويات الورق. ومن المثير للدهشة أنني كثيرًا ما كنت أجد شيئًا ما أمد يدي إليه، كتبًا، وصورًا فوتوغرافية، ومجلات، وصحفًا. كانت جريدة FAZ تمثل شيئًا قيّمًا بالنسبة لي.

كشرارة النار بالنسبة لبندقية محشوة، كانت الاحتمالات بالنسبة لتلك الانحناءة. خطر لي: لماذا أبحث في حاوية ورق واحدة فقط، بينما هناك الآلاف والآلاف في المدينة. وهكذا كان أن ضللتُ عن الطريق القويم، وانطلقتُ عشوائياً في أرضٍ، يسمها الدنس وقلة اللياقة. تورطت في أمرٍ بدا لي في البداية أنه جنون، ثم اتضح فيما بعد أنه شيء جيد.

عندما يكون المرء صغيرًا، يكون كل شيء بسيطًا، مثل السكين والشوكة، مثل العشب في المرج، مثل الحمامة على السطح.

لم أكن أفكر في الأمر كثيرًا، عندما كنت أتسكّع في الشوارع، مرتديًا أقدم سراويل الجينز، وسترة متينة، وأضع بين الحين والآخر ثلاثة كتب في حقيبتي. أثناء السير، كنت أراجع روايتيّ، اللتين كنت قد كتبتهما وأنا في أوائل العشرينات من عمري، وكنت أحفظهما عن ظهر قلب. أو كنت أترك صوتًا خاملًا في رأسي يجتر الماضي والمستقبل. أو أسكِت هذا الصوت بتلاوة الشعر.

كان المشي أمرًا صحيًا في نظري، عدة ساعات في الهواء الطلق، مع ارتفاع طفيف في النبض. كل هذا الانحناء، والغوص في أعماق الحاويات، والالتفات يمينًا ويسارًا لمعرفة ما إذا كان هناك من يقترب من الخلف، كان مفيدًا للظهر. فالجلوس إلى المكتب، يجعل المرء متصلبًا وأحادي النظرة.

بعد حوالي أربع ساعات، عدت إلى المنزل منهكًا. استقبلتني م. – التي كانت قد انتقلت للعيش معي في هذه الأثناء، وساعدت في تضييق ظروف السكن – بنظرة صارمة. كانت رموشها طويلة جدًا وفاتنة، وعيناها سوداوين على نحو لافت. قالت:

"تبدو كزعيم عصابة".

"حقًا؟"

" لابد فعليًا أن تخجل من نفسك".

بالفعل، لم تكن الملابس التي كنت أرتديها تفصح عن الأناقة. في نهاية كل جولة، كنت عادةً ما أبدو في حالة يرثى لها، متسخًا كالخنزير. ولكن لم يكن هذا هو السبب الوحيد الذي جعل رحلاتي تثير استياء م.. كنا في صغرنا من أبناء الطبقة المتوسطة من غرب النمسا الثري، ليس بعيدًا عن الحدود السويسرية، حيث لم يكن العشب هو الشيء الوحيد السمين. يظل الأمر مدهشًا دائمًا، كيف يرتبط كل شخص بالفعل بماضيه. من خلال تنقيبي في الأشياء التي تخلص منها الآخرون، كنت أسير ضد تقاليد أصولي. فحيث جئنا أنا وم.، كان لدى الناس حاجة أساسية للحفاظ على الشكل. وهناك، كان المدافعون عن التقاليد يحظون بتقدير أعلى من أولئك الذين يستهزئون بها. ولتحري الدقة، لم يكن الناس في فيينا

سوى أفضل قليلًا. أما النزعة شبه الصينية أحيانًا إلى الالتزام بآداب السلوك، التي واجهتها في فيينا، فلم تشجع كذلك على تجاوز جميع الحدود.

عندما كنت أُخرِج من حقيبتي مجموعة شعرية لسيرغي يسينين من باب الإلهاء، كان ذلك يوقظ فضول م. بالفعل. كنت أقرأ لها القصيدة المطبوعة على غلاف المجموعة، فترفع رموشها الساحرة، تقول:

"من الجنون فعلًا أن يتخلص منها شخص ما".

"ورأيت من خلال حجُب الضباب / بالأمس، بينما أومضت لي الشجيرات، / القمر، وكوكبة المهر الأحمر،/ إذ عقَلا نفسيهما إلى زلاجاتنا".

لكي لا أضطر إلى مناقشة المزيد، دفعت بنفسي إلى الدوش، الذي كان محشورًا في الخلف في آخر المطبخ. ثم التهمت أربعة أو خمسة قطع من الخبز مع النقانق، التي كانت أمي ترسل علبة منها بانتظام إليّ. ثم جلست إلى المكتب.

لقد استمتعت بحملاتي. أحببت السير لساعات، والمفاجآت غير المتوقعة التي قابلتها خلال ذلك. في كل جولة كانت هناك بدايةً أشياء مغلقة، سر كامن: ماذا سأجد هذه المرة؟ شيئًا عظيمًا؟ أو لا شيء؟ بالمناسبة، كنت أقدّر أن تلك الجولات ساعدتني على كسب لقمة العيش. كنت على وشك التخرج، وكنت أدرك تمامًا أن قراري بأن أصبح كاتبًا كان محفوفًا بالمخاطر. ككاتب، كنت أدخل نفسي إلى لعبة، لم أكن أعرف قواعدها. كنت أعرف فقط من قراءة بعض السير الذاتية ذات الصلة، أن هذه اللعبة قد أعدّت عقوبة خاصة للخاسرين: فشلًا حقيقيًّا. لهذا السبب عملت بالنية الحسنة لشاب، يعرف أن شركته ستفشل، إذا لم يبذل قصارى جهده. لكنني كنت مرتابًا حتى الخوف. في المقابل، هدّأ من روعي أن وجدت، إلى جانب عملي الصيفي كمساعد تقني في مهرجان بريغنتس المسرحي، وظيفة جانبية بسيطة أخرى في فيينا.

بانتظام مثير للدهشة، صادفت كميات كبيرة من الأشياء التي كان بعضها قيّمًا جدًا، ومنها الكتب، ومجموعات الطوابع، والأوراق المالية التاريخية، ورسوم الكاريكاتير القديمة، وبعض النشرات التجارية للسيارات القديمة، والرسوم المطبوعة، والملصقات، فكنت أحملها إلى دار المزادات. أما ما كان أقل قيمةً، فقد كنا أنا وم. نعرضه للبيع في سوق السلع المستعملة، ثلاث مرات في السنة. هكذا ظللت من دون التزامات، من دون ارتباط بصاحب عمل، مستقلًّا وحرًّا من أجل الكتابة.

كانت الإمدادات التي لا تنتهي من البطاقات البريدية، والأظرف، واللوازم المكتبية الصغيرة، ذات فائدة كبيرة لي. لطباعة نصوصي، لم أعد أستخدم ورقًا أشتريه، بل كنت أستخدم ما أجده، ومن بينه أوراق شركة شتروباخ وبوتشر. كانت لدي كميات كبيرة منها. وقد رأى السيد كليمسزا، جاري المباشر، وهو خباز، أكوامًا من ذلك الورق لديّ، فقال:

"أرنو! يمكنك الكتابة على طول الطريق من هنا حتى المقبرة المركزية".

كنت أقرأ كثيرًا بشكل جنوني، كنت أقرأ حرفيًا كل ما تُلقي به الصدفة على مكتبي. في ذلك الوقت، كنت أقوم بجولاتي صباح يوم الاثنين. كنت أجد تقريبًا دائمًا شيئًا ما. وبحلول يوم الاثنين التالي، يكون كل ما وجدته قد قُرئ. هذا ما كان يحدث غالبًا.

كنت أحمل صناديق الكمثرى الأرجنتينية من السوق إلى المنزل. كانت مُمَسْمَرة، من الخشب الخفيف، وصغيرة الحجم، ويمكن تكديسها معًا لتشكل رفوف كتب قابلة للاتساع دائمًا. قمنا أنا وم. بإخلاء أحد الخزانات التي بلغ ارتفاعها ثلاثة أمتار تقريبًا، وأطلقنا عليها اسمًا، أسميناها منذ ذلك الحين الدكان. هنا، قمنا بتخزين صناديق الموز المحتوية على الكتب التي ستذهب إلى سوق السلع المستعملة.

عندما أحصينا أنا وم. في مساء اليوم التالي نقود أول عملية بيع، كنا قد حصلنا على ستة آلاف شلن نمساوي – أي حوالي ستة أضعاف الإيجار الشهري. إذا نظرنا من خلال عدسة إمكانياتي المالية، فقد بدا الأمر كما لو أنني اكتشفت مقبرة فرعونية. إن كلمة ورق مشتقة في الأصل من ورق البردي. وقد كان للفرعون امتيازٌ على ورق البردي. إذن يمكن اعتبار أن كلمة ورق تعني ضمنيًا: ما يخص الفرعون.

بعد ستة أشهر، في عملية البيع الثانية، حصلنا على ضعف المبلغ. رقصنا أنا وم. فرحاً. كنا نبيع بناءً على حدسنا، أو ببساطة اعتمادًا على تكهناتنا، أو على حسن الحظ، وفي حالة الشك بثمن بخس، فلم يكن هناك إنترنت. كانت تلك أوقاتًا مختلفة. كم يصعب تصديق الأمر. كنا في كثير من الأحيان نخطئ في حدسنا، وكان ذلك يحفز العمل. ولكن كان منطقيًا على كل حال، أن نبيع كتابًا بثمن قليل، بدلاً من أن نحمله إلى المنزل مرة أخرى. ما الفكرة؟ وقد كانت الإمدادات الجديدة أمرًا متوقعًا.

في طريقي إلى البيت، دفعتُ العربة اليدوية التي استعرناها من الجيران في بيت كليمسزا، وعليها الصناديق المكدسة، وقد أصبحت شبه فارغة، عبر الشارع من دون عناء. حتى الكتب غير المباعة كان قد خف وزنها تحت أشعة الشمس. انتفخت أغلفتها، إلى هذا الحد كان الورق قد جفّ. أخذت العربة اليدوية تهتز وتتقافز قليلاً، وهو ما لم يكن من الممكن تصوره في الصباح، إذ كان كل شيء ثقيلًا للغاية.

أحب تعبير "النقود الخفيفة". كان يناسب شعور جسدي، عندما كنت أعود إلى المنزل بعد اثنتي عشرة ساعة من الوقوف على قدمي، تحت أشعة الشمس والغبار. العضلات دافئة، وكل شيء ينبض. كنا أنا وم. نحمل حقائب كتف جلدية، حصلنا عليها أنا وإخوتي، عندما كنا أطفالًا خلال عطلة قضيناها مع معسكر شباب لحماية الطبيعة. مع مرور اليوم، كانت هذه الحقائب الجلدية تثقل تدريجيًا حول أعناقنا من كثرة النقود الخفيفة. عندما أفكر في الأمر، أشعر بحكة الحزام الجلدي على رقبتي.

وضعنا الصناديق الفارغة ونصف الفارغة في الخزانة المسماة بالدكان. دخلنا تحت الدوش، ثم ذهبنا إلى جيران بيت كليمسزا، ووضعنا النقود التي جمعناها على طاولة طعامهم، في وعاء خزفي كبير، يسمى فايدلينغ. وسط التحيات الحارة، تم عَدّ النقود. شعرنا وكأننا نغطس في خزانة النقود مثل شخصية العم دهب الكرتونية. بعدها، قدمت لنا السيدة كليمسزا دجاجة مشوية مع البطاطس. كنت جائعًا جدًا. ولاحقًا، حين تداخل حديث الجميع أمام التلفاز، كدت أن أنام من شدة الإرهاق.

ولكن في السرير واصلنا أنا وم. الحديث: "الرجل الذي اشترى كتاب "إيدا" المصوَّر –. هل رأيت وجهه؟ كان سعيداً جداً!".

دعمتني م. في هذه المبيعات، وتسترت على سري. ومع ذلك، فقد أبقت على تحفظاتها، فلم تكن مرتاحة لجولاتي. أنا أيضًا لم أكن مرتاحًا تمامًا، على الرغم من أنني كنت حريصًا على عدم التطرق إلى الموضوع، كان لدي شعور ما كأنما هناك شيء قذر في الأمر، فأنت لا تفتش في قمامة الآخرين. والأكثر من ذلك، يُفترض أن ملابس المتهمين بالسرقة التي كنت أرتديها أثناء جولاتي، بدت في الواقع ممزقة أكثر مما أردت أن أعترف لنفسي. من السهل أن يعتقد المرء أن ملابسه الممزقة أروع من ملابس الآخرين. حين كانت م. تكرر قولها بأنني أبدو كالأوغاد، يا إلهي، صبي بعقلك! – عندئذٍ كنت أشعر بالخجل. عندئذٍ كنت أشعر بانتهاكي للمكانة الاجتماعية التي كنت قد وضعت نفسي فيها. كنت لتوّي قد أصبحت أمثّل أول جيل ينضم إلى صفوف الأكاديميين، وكان من الصعب التخلص من المفاهيم التقليدية عن كيف يجب أن يتصرف الشاب الحاصل على شرف الالتحاق بالأكاديمية. صرت أنا كذلك أنظر إلى نفسي سرًا – إذ كنت أقذف بنفسي بشكل ما إلى الحضيض – على أنني أتجاوز الحدود إلى القاع. من كان يفعل أفعالي، كان يوصم اجتماعيًا وفقًا للمعايير الأخلاقية في ذلك الوقت، وينتمي إلى حثالة المجتمع.

من المثير أنني لم أكن أتعامل مع الحظر، بل مع أحد المحرمات. فإن المحرمات أحيانًا ما تتعلق بأشياء غير مؤذية تمامًا، مثل مسح المخاط باليد أو اللسان في الأماكن العامة. فإذا ضُبطت وأنت تتلذذ بمسح مخاطك بيدك أو بلسانك، فإنك في بعض الأحيان تشعر بالخجل أكثر مما لو تجاهلت إشارة مرور حمراء. تمثل المحرّمات حدود ما هو سائغ. لكن هذا الحد ليس محددًا بدقة، ولا توجد عقوبة محددة للمخالفة. إنها مجرد مسألة لياقة.

خلال جولاتي، غالبًا ما كنت ألتقي بممثلي السلطات، ولم يشعروا فيما كنت أفعله بأدنى انتهاك – بل إن شيئًا من هذا القبيل يعدّ جزءًا من صورة المدينة. فإذا كنت تريد أن تكون مثل فيينا، مدينةً عالميةً، فعليك أن تتقبّل بعض الأشياء، فالمدينة العالمية ليست ساحة ثكنة عسكرية. ومع ذلك، لو كنت أفصحت لوالديّ عن أنني كنت أقضي نصف يوم في الأسبوع أنبش في قمامة هذا العالم الورقية، أعتقد أن أمي كانت ستحزن، وأبي كان سيصاب بخيبة الأمل. فقد كان عليهما أن يجمعا الكثير من المال لتوفير التعليم العالي لأبنائهما الأربعة. والآن هكذا يصير!

حسنًا. إن التخلي عن إعجاب الآخرين بك يكسبك مزيدًا من الحرية. ينطبق ذلك على العديد من مجالات الحياة، وبالطبع أيضًا على الكتابة.